المحاضرة الخامسة: شعرية المكان وتحولاته الوظيفية في الشعر المعاصر

لم يكن مجال الاهتمام بالمكان وقفا على الأدب دون الفنون الأخرى المنتسبة تصنيفا إلى حقول الإبداع الثرة؛ التي ما فتئت تعير متقلب الإنسان مساحة من التنظير والممارسة على حدّ سواء، بيد أن خصوصية استثمار المكان في الكتابة الشعرية تجعل منه مصدر إلهام ومثار وعي بأهمية دوره في تأثيث معمار النصوص.

فليس مجافيا للصواب إذًا النظر إلى المكان بوصفه مسرحا لتفاعل الأحداث وانتظامها ضمن نسق مؤثر، يأخذ فيه توظيف المكان بُعدا رمزيا تستحيل فيه التجربة الوجودية بفضل هذا فنا مصطبغا بجمالية التوظيف في انتظامها النصي وتجانسه؛ ليكون الأثر الفني آنئذ واسطة بين الذات والقارئ، وبؤرة تذوي فيها الحدود بين الشكل والمضمون، يخضع فيها المكان "بوصفه عنصرا بنائيا جوهريا في المغامرة الفنية للعمل الإبداعي إلى مجموعة من الممارسات الجمالية، التي تضعه في قالب الفاعلية اللغوية للنص؛ إذ يتوغل في عمق الشبكة النصية وينشر علاماته وإشاراته على مساحتها، ويلونها بألوانه ويضفي على طاقاتها الإبداعية استعدادات جمالية أكثر تركيزا وحضورا"[1]

وفي سياق البحث عن طبيعة المكان واقعيا وإبداعيا، يمكن التمييز، بين ثلاثة صنوف تعمل على تأثيث المواقف الحياتية: **أولها** المكان النصي؛ أي ما يشغله النص في امتداده عبر الصفحات الورقية وانتظامها وفق طرائق إخراج معينة، و **ثانيها** المكان كما هو في النص السير ذاتي، و **ثالثها** المكان الجغرافي الذي تنتفي فيه العلاقة بينه وبين المكان الواقعي فهو يشبهه ولا يطابقه.

وإذا "كان الزمن يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث؛ فإن المكان يظهر على هذا الخط ويصاحبه ويحتويه وهناك اختلاف بين طريقة إدراك الزمن وطريقة إدراك المكان حيث إن الزمن يرتبط بالإدراك النفسي، أما المكان فيرتبط بالإدراك الحسي "[2] ويخضع لما يمارسه الكاتب من انتقائية أثناء استحضار المواقف الحياتية، بما يمكن أن يثري سيرته الذاتية، ولكنه بالمقابل اختزال لأمكنة لم يكن لها، من منظور صاحب السيرة الذاتية، تأثيرا

---

[1] محمد صابر عبيد: المغامرة الجمالية للنص الشعري، ص216.

[2] سيزا قاسم: بناء الرواية، ط01، دار التنوير، بيروت، لبنان، 1985، ص113.

يذكر في واقع حياته وتكوين وعيه، لتظل متوارية خلف حجب التناسي أو النسيان المبرر ببُعد المسافة الزمنية بين مراحل الأنا العمرية، فعناصر المكان المستحضرة، إذا اقترن حضورها بحديث الذكريات، ستبدو متجاوزة للحظة الكتابة الآنية بمضاعفتها طاقة النص التأثيرية.

إن الإقرار بأهمية المكان ودوره يجعل منه، بحسب بنكراد، عنصرا مساهما في عملية إنتاج المعنى، ودلالته لا تأتي من العناصر الطبيعية المشكلة له بل تأتي عن كيفية عرضه، ذلك أن عملية انتزاع العنصر الطبيعي من بيئته الأصلية وتثبيته داخل بنية نصية جديدة تمنح الفضاء المكاني دلالة خاصة [2]، فهو بذاك خروج من المجال الذي تنتمي إليه الذات ورجوع إليه في الآن معا، وبين المحطتين يتحقق موضوع السيرة الذاتية الجمالي/ الفني المتميز عن الموضوع الفيزيقي/ المادي للمكان، ولا يعني أنهما منفصلان توظيفا، بحيث يبقى الموضوع الجمالي في نطاق التخييل ويبقى الموضوع الفيزيقي في نطاق الإدراك الحسي.[2]

والحق أن الأمكنة، وإن تنوعت طرائق الإحساس بها، أطر تدور فيها الأحداث وتتمركز حولها الفاعلية الإبداعية، التي تمثل وعيا بالكتابة، ومجالا لطرح سؤال الهوية والوجود ورؤيا الأبعاد الثقافية والاجتماعية، وتشكيل النسيج السيكولوجي والإيديولوجي والمعرفي[3]. وعليه يعدّ المكان في بعده الهندسي من العناصر "التي يوجه إليها الإنسان مشاعره سواء أكانت مشاعر ألفة أم مشاعر معادية، فهي تخضع للوضع الفكري والنفسي الذي يعاني منه الإنسان" [4]، وتلك علاقة تبرز أبعاد المكان الطقوسية والتاريخية؛ وما تثيره في نفسية المتلقي من إحساس بأهمية امتداداته، زيادة على كونه منبع الذكريات، وباعث أجواء سبق أن عايشها المبدع.

وقد ينظر بالمقابل إلى الأماكن التي يعايشها الكاتب "بوصفها عوائق، تحول دون الحركة الحرة، وبدافع هذه القوة يكون الإصرار على الانتصار على هذه العوائق وصولا

---

[1] ينظر: سعيد بنكراد: مدخل إلى السميائية السردية، ص90.

[2] ينظر: سعيد توفيق: الخبرة الجمالية، ط01، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002، ص200.

[3] ينظر: حسن نجمي: شعرية الفضاء، ط01، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص12.

[4] محمد عبيد السبهاني: المكان في الشعر الأندلسي، ص105.

إلى الهدف المنشود، ولا يتم هذا إلا إذا ترك وراء ظهره كل ما تمثل لنفسه قيدا يظهر عجزه عن الحركة والانطلاق، وسعى إلى مكان آخر يعينه على انطلاقة الفكر، التي تعد الخطوة الأولى لتأكيد الذات" [1].

إن الاحتفاء بالمكان يحمل في طياته هاجس السؤال عن الانتماء والمنشأ والذكريات ، ليظل المبدع قادرا على بناء علاقات إنسانية متعددة يتضمنها المكان، فالتجربة الإبداعية بما لها من أبعاد ذاتية ستظل انعكاسا لمنظومة متكاملة من المؤثرات ومنها المكان الذي يعدّ مكونا من مكوناتها ومجالا مشتركا تتفاعل فيه الأحداث والمواقف.

والممارسة النصية حينما تتخذ من الإبداع وسيلة من وسائل التعبير بالصورة عن المكان لا يعني ضرورةً أن تكون تلك العملية على تعقيدها مجرد نقل آلي/ إسقاطي لجزئيات المكان، إذ لا مناص من التنويه ههنا بخصوصية الكتابة في بعدها الفني ، وما تتطلبه من موهبة وقدرة على تكوين صور ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس، ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعادة الآلية لمدركات حسية بزمان أو مكان بعينه ، بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك ، فتعيد تشكيل المدركات وتبني منها عالما متميزا.

لذا يعدّ تفاعل الأمكنة في مستواها المتخيل مكونا أساسيا من مكونات الممارسة النصية برؤاها الفنية ومعطياتها الجمالية وما لها من امتدادات دلالية، إذ يقتضي استكناه هذا التفاعل في سياق توظيفه النصي مراعاة التداخل بين بعديه الواقعي والمتخيل في دلالة على حركيته.

ومن خلال ما سبق، يعدّ تحول المكان سمة سالبة بالنظر إلى صورته المثلى التي ارتسمت في تلافيف الذاكرة، تلك الصورة ظلت محافظة على وجودها وذكراها منذ أن تشكل المكان نفسه إلى أن صار أثرا بعد عين، بيد أن فقد المكان لماديته لا يعني ضرورة انمحاء جغرافيته برمتها، فهو وإن فقد جزءا من ملامحه المحددة يبقى محافظا على رمزيته المتجسدة في اللغة الموظفة، ويأخذ توصيف المكان بعدا حسيا ببيان شكله وأبعاده وتأثيره النفسي والاجتماعي والجمالي في تكثيف واضح لمدلولاته في فضاء نصي له

---

[1] نبيلة إبراهيم: فن القص في النظرية والتطبيق، ص 161.

امتداده المكاني أيضا، وهو الذي يشغل بدوره مساحة على سطح الورقة يجليها فعل الكتابة فتتفحصها عين القارئ بحثا عن سرّ الإبداع فيها.

المصادر التمثيلية: يمكن التمثيل لفحوى المضمون النظري بالمصادر الآتية:

فدوى طوقان: وحدي مع الأيام
محمود درويش: يوميات الحزن العادي
محمود درويش: عابرون في كلام عابر
صلاح عبد الصبور، ديوان النّاس في بلادي